المحاضرة الخامسة: مفاهيم أساسية في لسانيات النص

تمهيد:

لعل أهم ما يعتدّ به الباحث اللساني في معرض تعامله مع النصوص تحليلا وتصنيفا، هو أن يتعرّف إلى مجمل المبادئ والمفاهيم التي تميّز مجال بحثه عن باقي المجالات الأخرى وإن اشتركت في موضوع الدراسة (النص)، فتوحيد المفاهيم بين المشتغلين في الحقل المعرفي الواحد من شأنه أن يوحد آليات البحث والتحليل ومن ثم توافق النتائج المتحصل عليها.

إن ضرورة الضبط المفهومي هي استجابة طبيعية للتحول الذي مسّ الدراسات اللسانية إثر ذلك الانتقال من لسانيات الجملة إلى لسانيات النص، بعد أن تجاوز التحليل اللساني النصي النظرة التي أطرت التحليل البنوي، الذي راهن على اعتبار اللغة"شكلا لا جوهرا" إلى التركيز على دراسة التواصل اللغوي وكيفياته وشروطه، ويكون بذلك قد أعاد إلى"بؤرة" الدرس اللساني ما عافته البنوية سلفا، حين دعت إلى موت المؤلف، غير آبهة بالكلام كونه إنجازا فرديا، لا تصلح نتائج دراسته للتعميم، في حين ركّزت اللسانيات النصية على عناصر العملية الإبداعية (المبدع، النص، القارئ) وما يحيط بها من ظروف وملابسات سواء غداة الإنتاج أو التلقي، وأبرزت دور المتلقي في بث الدينامية في النصوص من خلال البناء وإعادة الانتاج والفهم، بحيث يكون المؤلف هو المنتج الأول والقارئ هو المنتج الثاني[1].

تتناول كثير من العلوم الإنسانية (علم الأدب البلاغة، علم النفس، علم الاجتماع، علم التاريخ...)، النص اللغوي مادة دراستها، إلا أن هذا الاشتراك لا يعني بالضرورة تطابق نتائج أبحاثها، وما ذاك إلا لاختلاف مناهج الدراسة وتباين وجهات النظر إلى مادة الدرس انطلاقا مما تمليه الأسس النظرية ومرتكزات كل نشاط التي تشكل مفاهيمه[*].

لئنّ شكّل النّص اللّغويّ مادّة اشتغال هذه العلوم، إلا أن التّطوّر الذي حدث في العقدين الأخيرين من القرن الماضي هو الذي أدّى إلى أن تصبح مشكلات التّحليل النّصي وأهدافه الموزّعة على تلك العلوم المختلفة وعلوم أخرى، موضوعا لدراسة متكاملة جديدة مشتركة بين تلك العلوم بحيث كرست وبعمق ما يسمّى تضافر الاختصاصات، أو التداخل المعرفي *Interdisciplinaire*، هذه الدّراسة هي اللّسانيّات النّصّية (*Linguistique textuelle*)[2]، التي هي سليلة التطور الذي حدث في كثير من المفاهيم النقدية واللسانية المعتمدة في التعامل مع الخطابات على اختلاف أشكالها وبخاصة ما تعلق منها بتحليل النصوص الأدبية.

---

[1]- سعيد حسن بحيري، علم لغة النص ، المفاهيم والاتجاهات، ص:162.

*) والمفهوم في معناه العام هو مجموع الصِّفات والخصائص التي تحدِّد الموضوعات التي ينطبق عليها اللفظ تحديدًا يكفي لتمييزها عن الموضوعات الأخرى؛ فمفهوم الإنسان بالمعنى الأرسطي – مثلًا – هو أنَّه حيوان ناطق، وماصدقاته هم: أحمد ومحمد، وسائر أفراد الناس" – ينظر: إبراهيم البيوني وآخرون، بناء المفاهيم'دراسة معرفية ونماذج تطبيقية' المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، مصر، 1998، ج1، ص: 31.

[2]- صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان، ط، 1996 ص318و319.

جمع هذا التيار العلمي الجديد المناهج النقدية وجعلها تتقاطع في ما بينها للكشف عن نصية العمل الأدبي لأنه في النهاية نص لغوي... وفهم لغته في كليته خطوة أساسية نحو تقييمه جماليا أو إبراز قيمته الجمالية[3]، من خلال التعامل معه من حيث هو كل متكامل لا يقبل التجزئة، إذ"يستهدف التحليل اللغوي النصي أن يجعل البنية، أي البناء النحوي والموضوعي، وكذلك الوظيفة الاتصالية لنصوص محددة، شفافةً، وأن يعرضها على نحو يمكن التحقق منه، ويمكنه من خلال ذلك أن يوفر نظرات عميقة في التماسك القاعدي لبناء النص (تكوين النص)، وفهمه (تلقيه)، ويسهم كذلك في فهم الكفاءة النصية الخاصة، أي تنمية القدرة على فهم نصوص غير معروفة وإنتاج نصوص مناسبة[4]، متجاوزا بذلك الحد الكلاسيكي الذي وضعه البنويون والذي قوامه وصف مستوى لساني محدد دون التطرق إلى علاقة التضام التي تربطه بسائر المستويات اللسانية الأخرى، جاعلا من النص موضوعه الشرعي والوحيد، منطلقا من رؤية شمولية تنزه النص عن أن يكون مجرد تتابع من الجمل التي تدرس بمعزل عن بنيته الكلية. فصار لهذا التوجه اللساني الجديد ملامح نقدية تميزية تمثلت في رصد الروابط النصية من جهة وتأكيد ضرورة المزج بين المستويات اللغوية المختلفة من جهة أخرى، لتتدرج الدراسة حتى تصل إلى الانساق الذي يتبدى من خلال النظرة الكلية للنص دون الفصل بين أجزائه، لأن المعنى الكلي للنص يتأتى من خلال التعامل معه بوصفه بنية كبرى، وعليه فالنص في إطار هذا التصور بنية أو تشكيل أو تكوين ينتج معناه من خلال حركة جدلية أو تفاعل مستمر بين أجزائه، ومن ثم لا يتحتم بحث الترابط التركيبي بين مكوناته فحسب، بل لابد ان ننفذ منه إلى الكشف عن أوجه الانسجام الداخلي بين دلالاته الجزئية وإبراز مظاهر التساوق بين مضامينه الجزئية أو إيضاح أوجه التعالق بين أبنيته الصغرى وأشكال التماسك بين أبنيته الكبرى، باعتباره بنية كلية متلاحمة الأجزاء[5].

يتضح من هذا التحديد أن النص لا ينحصر في مجمل المكونات اللغوية كونه بنية لغوية بقدر فقط ما هو بنية غير لغوية عبر الوقائع غير اللغوية المرافقة للحدث اللساني.

لسانيات النص إذنْ، هي أحدث فروع اللسانيات تعنى بدراسة النص من حيث حدُّه وإبراز مميزاته وتماسكه واتساقه والبحث عن محتواه الإبلاغي التواصلي...حيث تحتل مسألة النصية (*Textualité*) مكانا مرموقا في البحث اللساني، لأنها تجري على تحديد الكيفيات التي ينسجم بها النص (*Texte*) وتكشف عن الأبنية اللغوية وكيفية تماسكها وتجاورها، من حيث هي وحدات لسانية؛ تتحكم فيها قواعد إنتاج متتاليات مبنينة[6]، كما تبحث أيضا في الكيفيات الخاصة في التعامل مع الأداة العامة (اللغة)، لذلك جمع هذا التوجه الجديد مختلف مناهج الدّراسات النّصية ووضعها في قالب واحد، متوسّلا بها تفكيك وتحليل النّصوص بصورة شموليّة، من حيث مستوياتها: النّحوية والمعجميّة والدّلاليّة والتّداوليّة،

---

[3]- عزة شبل محمد، علم لغة النص، النظرية والتطبيق، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، ط1، 2008، المقدمة، ص: د.

[4]– كلاوس برينكر، التحليل اللغوي للنص، مدخل إلى المفاهيم الأساسية والمناهج، تر/ سعيد حسن بحيري، مؤسسة المختار، القاهرة، مصر، ط2، 2010، ص: 21.

[5] – سعيد حسن بحيري، اتجاهات لغوية معاصرة في تحليل النص، مجلة علامات في النقد، النادي الأدبي الثقافي، جدة، المجلد 10، العدد: 38، 2000، ص: 167، 168.

[6]- أحمد مداس، لسانيات النص نحو منهج لتحليل الخطاب الشعري، عالم الكتب الحديث، اربد - الأردن، ط2، 2009، ص3.

متجاوزا بذلك ما كان سائدا من تقديس للجملة وقواعدها عند البنويين.

تأسست المفاهيم النصية انطلاقا من جوانب دراسة اللغة؛ إذ نظر إلى اللغة من جانبي الدرس والاستعمال، فأما الدرس فقد سعى إلى الكشف عن تكوين كل لغة بوساطة النظر إلى عناصرها على مستوى الجملة وما دونها نظرا تحليليا يعتمد على التبويب والتصنيف والتأصيل. وكان لابد لهذا الاتجاه التأصيلي أن يعتمد على تجريد المفاهيم وافتراضها عند عدم وجود ما يقابلها في الاستعمال[7]، لأن دواعي الالتزام بالمعيار اللغوي تحمل الدارس اللغوي على أن يخضع الواقع اللغوي إلى مقتضيات المعيار، وإن تلمس إلى التمحل والتكلف في ذلك سبيلا،حتى قيل قديما: أهوى من حجة نحوي، كأن يقدر العامل في الاشتغال على الافتراض لا على الواقع النطقي، وهو ما يدعو إلى وصف هذا النظام اللغوي بأنّه نظام افتراضي يقضي بأمور يفرضها على تفسير الاستعمال[8]، وأمثلة ذلك كثيرة في التراث اللغوي العربي من خلال النصوص الأكثر تأثيرا على القراء والسامعين؛ كقوله تعالى:﴿إِنَّ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾طه63،﴿إِنَّ الذِينَ آمَنُوا وَالذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى﴾البقرة62،﴿وَقَالَتَا آتَيْنَا طَائِعِينَ﴾فصلت11، وقوله ﷺ:"لإِنَّ قَعْرَ جَهَنَّمَ سَبْعِينَ خَرِيفًا"،"مَنْ صَامَ رَمَضَانَ ثُمَّ أَتْبَعَهُ سِتًّا مِنْ شَوَّال"،وقول العرب:"مُكْرَهٌ أَخَاكَ لاَ بَطَلٌ"، وقول امرئ القيس:

كأن ثبيراً في عَرانين وَبلِهِ ... كبيرُ أناسٍ في بِجاد مُزَمَّلِ

وحكم نظام اللغة في ذلك أن يقال: "هذين، الصابئين، طائعتين، سبعون، أخوك، مزمّلٌ"، هذا هو معنى افتراضية النظام وقيامه على أساس من التجريد والتصنيف والتقعيد للحكم على الاستعمال[9].

أما الجانب الثاني للنشاط اللغوي وهو الاستعمال، فله مرتكزاته التي لا تتفق دائما مع المعايير الافتراضية ... فللمتكلم من الأغراض ما لا يتفق أحيانا مع المحافظة على القاعدة، تلك هي الأغراض التي تدعو للخروج من الحقيقة إلى المجاز ومن المطابقة إلى الترخص في معايير الإجراء بوسائل كالنقل والحذف والزيادة ومخالفة القاعدة والتعويل على الدلالات الصوتية والعقلية والتقديم والتأخير والإيماءات الجسدية والتعويل على دلالة الموقف أثناء الاتصال وعلى القرائن التاريخية والجغرافية، وغيرها مما يخرج عن مجال دراسة القواعد النحوية[10].

تبدو مفاهيم التحليل اللساني النصي أكثر وضوحا بالموازنة مع النحو الافتراضي الذي يركز توجهه على التحليل بغرض الوصف، في حين يسعى التحليل النصي في دراسة الاستعمال إلى التركيب بغرض الوقوف على ما يتحقق من دلالات مصاحبة لعملية التواصل قد تعجز الاستعمالات اللغوية على استيفائها منفردة. ذلك"أن الاتصال لا يتم بوصف الوحدات الصغرى صوتية وصرفية ولا بعرض العلاقات النحوية، وإنما يتم باستعمال اللغة في موقف أدائي حقيقي[11]، ثم إن مهمة لسانيات النص/ علم لغة النص هي"وصف الشروط والقواعد العامة لتكوين نص، التي

---

[7] - روبير دي بوجراند، النص والخطاب والاجراء، المقدمة، ص: 3.

[8]- المرجع نفسه، المقدمة، ص: 3.

[9]- المرجع نفسه، المقدمة، ص: 3.

[10]- روبير دي بوجراند، النص والخطاب والاجراء، المقدمة، ص: 4.

[11]- المرجع نفسه، المقدمة، ص: 4.

تعد أساس النصوص الفعلية، وصفا منظما؛ وأن يوضح أهميتها لتلقي النص، وهو في ذلك لا يفرق بين وظيفة النص وبنيته[12].

وبموجب ضبط المفاهيم يمكن التمييز بين حدود ما هو نص وما هو خطاب وبين عالميهما، إذ إن الصفة المميزة للنص هي استعماله في الاتصال، وأن الخطاب مجموعة من النصوص ذات العلاقات المشتركة، أي أنه تتابع مترابط من صور الاستعمال النصي يمكن الرجوع إليه في وقت لاحق. وإذا كان عالم النص هو الموازي المعرفي للمعلومات المنقولة والمنشطة بعد الاختزان في الذاكرة من خلال استعمال النص، فإنّ عالم الخطاب هو جملة أحداث الخطاب ذات العلاقات المشتركة في جماعة لغوية أو مجتمع ما[13]، وقد قدّم علماء اللغة عدة تعريفات لمفهوم النص، يمكن تقسيمها إلى قسمين: الأول يصف المكونات اللغوية للنص، وكيفية تنظيمها مما يشكل نصا متماسكا/ من هذه التعريفات أن النص"وحدة دلالية ترتبط أجزاؤها معا بواسطة أدوات ربط صريحة" أو هو وحدة لغوية دلالية تنتج عن مجموعة من الجمل ترتبط فيما بينها من خلال وسائل الخطال، بعضها نحوية، وبعضها دلالية، وأخرى منطقية" أو"هو تتابع من الجمل المترابطة.

التعريف الثاني يرتكز على النص باعتباره حدثا تواصليا أو تفاعلا لغويا يشتمل على ثلاثة أبعاد رئيسية هي: كيفية استخدام اللغة، وعملية إنتاج النص، والتفاعل في السياقات الاجتماعية[14].

وما يمكن أن ننتهي إليه في حديثنا عن المفاهيم الأساسية للسانيات النص، هو: على الرغم مما يكمن خلف هذا النشاط المعرفي من اتجاهات لغوية نصية كثيرة ذات تصورات متباينة، إلا أنها تتفق جميعا في المفهوم القائل إن أعلى وحدة مختصة للتحليل اللغوي ليست الجملة بل النص.

---

[12]- كلاوس برينكر، التحليل اللغوي للنص، مدخل إلى المفاهيم الأساسية والمناهج، تر/ سعيد حسن بحيري، ص: 15.

[13]- روبير دي بوجراند، النص والخطاب والاجراء، المقدمة، ص: 6.

[14]- عزة شبل محمد، علم لغة النص، النظرية والتطبيق، المقدمة، ص: ط.